(٤٦) خطبة له ﷺ فى التحذير من التنافس فى حب الدنيا والترغيب فى أعمال الآخرة

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى قتلى أحُد فصلَّى عليهم بعد ثمان سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع إلى المنبر، فقال:

«إنِّى بينَ أيديكُم فَرَطٌ، وأنا شهيدٌ علَيكُم، وإنَّ موعدَكم الحوضُ، وإنِّى لأنظرُ إليه مِنْ مقَامِى هَذا، وإنِّى لستُ أخْشَى عليكُم أنْ تُشرِكوا، ولكنْ أخشَى عَليكُم الدُّنيا أنْ تَنَافَسُوهَا».

قال (١): فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ.

(متفق عليه)

وفى رواية:

« ولكنِّى أخشَى عليكُم الدُّنيا أن تَنافَسُوا فيهَا، وتَقْتَتلُوا؛ فتَهلكوا كما هلكَ مَنْ كانَ قَبْلَكم ».

قال عقبة: فكان آخر ما رأيت رسول الله ﷺ على المنبر.

وفى رواية قال:

---

(١) أى: عقبة بن عامر رضي الله عنه.

«إنِّى فرطٌ لَكُم ، وأنا شهيدٌ عَليكُمْ ، وإنِّى واللهِ لأنظرُ إلَى حَوضِى الآنَ ، وإنِّى أُعْطِيتُ مَفَاتيحَ خزائنِ الأرضِ - أو مَفاتيحَ الأرضِ - وإنِّى واللهِ ما أخافُ عليكُم أن تُشرِكوا بَعْدِى ، ولكنْ أخافُ عَليكم أن تَنافسوا فِيهَا» .

قال فى «رياض الصالحين» : والمراد بالصلاة على قتلى أحُد : الدعاء لهم ، لا الصلاة المعروفة .

فى هذه الخطبة - كما قرأنا - يشير النبى ﷺ إلى أنه فرط بين أيدينا - أى أنه سيسبقنا إلى لقاء الله تبارك وتعالى - وأنه شهيد علينا ، أى أنه ﷺ سيكون شهيداً علينا يوم القيامة كما كان شهيداً لنا فى الدنيا ، وذلك لمصلحتنا ، وضماناً لنجاتنا يوم العرض الأكبر :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(١) ..

وهذا معناه - كذلك - أننا لا بد وأن نكون أهلاً لتلك الشهادة التى بدونها - والعياذ بالله - سنكون فى حالة يرثى لها ، مع ملاحظة أننا لن نكون أهلاً لها إلا باتِّباع الرسول ﷺ ، والبعد عن مُحدثات الأمور .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا فى قوله : **«وإنَّ موعدَكم الحَوْضُ»** .

وفى حديث آخر :

---

(١) سورة المطففين : ٦ .

« **وَأنا فَرَطُهُمْ**[1] **عَلَى الحَوْضِ ، أَلا لَيُذَادَنَّ رجـالٌ عَنْ حَوْضِى كَمَا يُذَادُ البَعِـيرُ الضَّـالُّ، أناديهم: أَلاَ هَلُمَّ**[2]**، فيـقالُ: إنَّهم بَدَّلـوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحْقاً، سُحْقاً** [3]» .

(من حديث رواه مسلم)

مع ملاحظة [4]: أن لكل رسول حوضاً يَرِدُهُ الطائعون من أمته، وأن حوض النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكبرها وأعظمها، طوله مسيرة شهر، مربع الشكل، له ميزابان يصبان فيه من الكوثر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، كيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ظمأ ألم، ولو دخل النار يعذب بغير العطش، ويكون شربه منه أو من غيره كالتسنيم [5] بعد ذلك لمجرد اللذة، يَرِدُهُ الأخيار، وهم المؤمنون بالنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الآخذون بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، ويُطرد عنه الكفار والمبتدعة، الآخذون بالتحسين والتقبيح . . وكل من تعامل بالربا، أو جارَ فى الأحكام، أو أعان ظالماً، أو جاوز حداً من حدود الله تعالى .

---

(١) أى : أتقدمهم .

(٢) أى : تعالوا .

(٣) أى : بُعداً لهم .

(٤) كما جاء فى «الدين الخالص» ج ١ .

(٥) قال تعالى : ﴿**وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ**﴾ [المطففين : ٢٧] وهو أفضل شراب الجنة .

وقد صحَّح الغزالى أن الحوض قبل الصراط، وكذا القرطبى، وقال: المعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فناسب تقديم الحوض، وأيضاً فإن من جاز الصراط لا يتأتى طرده عن الحوض فقد كملت نجاته..

ثم إذا كان الرسول ﷺ قد قال فى نهاية الخطبة: «**وإنِّى لستُ أَخْشَى عَليكُم أنْ تُشْرِكوا، ولكنْ أخشَى عَلَيكم الدُّنيا أنْ تَنافَسُوها**»: فإن النبى ﷺ يريد بهذا أن يحذرنا من التنافس فى حب الدنيا بتلك الصورة التى قد تُلهينا عن ذكر الله تعالى، كما يشير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾»[1].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**ألاَ إنَّ الدُّنيا مَلعونةٌ، ملعونٌ ما فِيهَا إلا ذِكْرُ اللهِ تَعالَى ومَا وَالاَه، وعَالِماً ومتعلِّماً**».

(رواه الترمذى وقال: حديث حسن)

وحسبنا فى النهاية إذا أردنا أن نعرف حقيقة الدنيا: أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

(١) سورة المنافقون: ٩.

﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

* * ولهذا فإنه من التفكر الإيجابى أن يتأمل الإنسان المؤمن فى كل ما يحيط به من مخلوقات . . حتى يتفكر فى عظمة الخالق سبحانه وتعالى من خلال هذا التأمل . كما يشير إلى هذا أحدهم فى قوله :

تَأمَّلْ فى نَبَـاتِ الأَرْضِ وانْظُرْ ... إلى آثارِ مَـا صَنَعَ المَـلِيكُ
عُصُـونٌ من لُجَـيْنٍ شَاخِـصاتٌ ... بأبصارٍ هِىَ الذَّهبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُـضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَـاهِداتٌ ... بأنَّ اللـهَ ليسَ لَهُ شَـرِيكُ

جـعلَنا الله تعـالى من القـوم الذين يتـفكرون فى تلك الآيات التى فصَّلها الله تبارك وتعالى . . حتى نكون من أبناء الآخرة لا من أبناء الدنيـا ، وحـتى نكون من أولى ﴿الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢).

ثم يقولون :

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٣).

. . . . آمين .

* * *

(١) سورة يونس : ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٣) سورة آل عمران : ١٩١ .